تطور النثر المصري المعاصر

وأثر المفكرين اللبنانيين فيه

بقلم الناقد السوفياتي ف. بوريسوف

في نهاية الحرب العالمية الثانية اصبحت الحياة في البلاد العربية ديمقراطية ، وقد ساعدت طبيعة الحرب ضد الفاشستية على نمو الوعي السياسي لدى المثقفين التقدميين ، ولدى الفلاحين والعمال، فاصبحوا يناضلون بنشاط وفاعلية في سبيل الاستقلال الوطني من اجل حقهم الحيوي والملح .

وفي سنوات ما بعد الحرب قدم النضال من اجل السلام فيجميع انحاء العالم الى المسرح السياسي الكبير ممثلين من جماهير الشعب.

وفي مجموعة من البلاد العربية زادت الطبقة العاملة من ناحية العدد والتنظيم ، ففي مصر ـ على سبيل المثال ـ بلغ عدد العمال مليونا وقامت النقابات واحدة اثر الاخرى لتوجيه نضال الكادحين .

وكان من الطبيعي ان يؤدي تنشيط الديمقراطية في الحياة الاجتماعية الى ظهور الادباء الجدد ، المنحدرين من الشعب ،والمدافعين عن مصالحه .

في سني الحرب كان كل نشاط الاغلبية الساحقة من هؤلاء الادباء الشبان موجها ـ قبل كل شيء الى هزيمة الفاشية ، والعملاء الفاشيين في الشرق العربي .

وفي نهاية عام ١٩٤١ انشأت الرابطة السورية اللبنانية للنضال ضد الفاشستية في بيروت مجلة « الطريق » التي سرعان ما تجمع حولها الكتاب المعادون للفاشية في جميع البلدان العربية .

وكان من قادة هذه المجلة الاوائل واحد من الشخصيات اللبنانية الاجتماعية المعروفة ، وهو الكاتب عمر فاخوري (١) (١٨٩٦ ـ١٩٤٦)، الذي اثر تأثيرا كبيرا على التربية الايديولوجية السياسية للكتاب الديمقراطيين الشبان ، فقد دعا الكتاب الشبان الى ان يدرسوا في أعمالهم السياسة الاجتماعية للشعب ، وان يصلوا بين افكارهم وبين حياته ، وان يسعوا بكل قواهم لتعليم جماهير الشعب .

وبجانب مؤلفه « الاتحاد السوفييتي حجر الزاوية » عام ١٩٤٤ وغيره ، فقد نادى شعوب البلاد العربية الى الصداقة والتعاون مع جميع الشعوب ، وفي مقدمتها الاتحاد السوفييتي الذي رأى فيه مدافعا عن المضطهدين ، وقد كتب عمر فاخوري :« نحن لا نستطيع ان نعيش اكثر لاننا عشنا حتى هذه اللحظة ، ومن الضروري ان نفكر في كيف يجب ان نعيش ، ان الحرب الهائلة التي ستقهر العالم كله بالحديد والنار سيدور حولها الجدل في كيف يجب ان يعيش الناس والامم ، ويجب ان نحتل مكاننا في هذا الصراع (٢) ..

وبهذه الكلمات وضع عمر فاخوري برنامج مجلة « الطريق »ومعظم الكتابات المنشورة في المجلة من هذه المواد او تلك تتناول هذه المسألة : « كيف يجب ان نعيش » .

وفي فترة ما بعد الحرب كانت المجلة تدعو الى تنشيط النضال الوطني التحرري ، والى القضاء على الميراث الاستعماري في الشرق العربي ، والى النضال من اجل السلام ، والى الانتفاض ضد جر البلاد العربية الى الاحلاف العسكرية ، وقد اصبحت « الطريق » عضوا في منظمة انصار السلام ، لا في سوريا ولبنان فحسب ، وتزايد اكثر فاكثر من كانوا ينشرون انتاجهم فيها من الادباء المصريين ، والعراقيين ، والسودانيين ، ومن كانوا يراسلونها من العربية السعودية ، واليمن ، وشمالي افريقيا .

وفي عام ١٩٥٠ ظفر نشاط المتعاونين مع المجلة باعتراف المجتمع الدولي ، فاحرزت مجلة « الطريق »الميدالية الذهبية التقديرية للسلام.

وكانت غالبية المراسلين المتعاونين مع مجلة « الطريق » من الشبان المنحدرين من تجمعات الشعب ، ومعظم هؤلاء بدأوا نشاطهم ككتاب اجتماعيين سياسيين ،ولكن بعض هؤلاء في المدى الطويل جربوا قواهم في فن القصة القصيرة ، ونقلوا شعار « اكتب من اجل الشعب واكتب عن الشعب » من الكتابة الاجتماعية السياسية الى الادب الفني.

وقد اصبح الموضوع الرئيسي لانتاجهم هو التعبير عن حياة الكادحين ، كالفلاحين ، والعمال ، والمثقفين التقدميين ، وبشجاعة قدم هؤلاء الشبان من الكتاب في مؤلفاتهم مشكلات حيوية ملحة ، وفي مقدمتها مشكلة الاصلاح الجوهري لظروف حياة الجماهير الشعبية، والقضاء على تبعية البلدان العربية سياسيا واقتصاديا للدول الاستعمارية ، وحاولوا ان يكتشفوا المبادأة الإيجابية الإبتداعية في البطل الجديد ، وهو الانسان الكادح . فالشخصيات الرئيسية للقصص والاقاصيص في البداية مظلومة مضطهدة فاقدة الامل في مستقبل افضل ، ثم تتحول بالتدريج الى اناس اقوياء، يناضلون بوعي ضد الظلم الاجتماعي ، ويؤمنون بالانتصار الطبيعي .

وهؤلاء الابطال معارضون بصراحة ضد بطل الادب البورجوازي الفاسد الضعيف النفس ، المعيب ، غير الواثق في الحياة ، ولا في شخص بطل الادب البورجوازي .

لكن ابداع الكتاب الشبان ليس متحررا من المعايب الكبيرة، فكثير

(١) عن ابداع عمر فاخوري انظر : رسالة د.أ. يوسوبوف ، ابداع عمر فاخوري والاتجاه الرئيسي لمجلة « الطريق » موسكو ١٩٥٤ .

(٢) « الطريق » ، ١٩٤٢ ، عدد ٤ ، ص ٤ .

منهم حتى هذه اللحظة لا يملكون القدرة التامة على التكوين الفني ، والاختيار الدقيق للمادة ، وابداع الصورة ، ومؤلفاتهم كثيرا ما تكون شكلية ، لان سيكولوجية الابطال تتكشف عن شيء من السطحية ، والصورة ـ كما هي العادة ـ تكتب باسلوب تقليدي ، يقترب قليلا من تعبير الابطال الجدد ، ويستخدمون الاساليب في قوالب هجرت منذ زمن طويل ، ولهذا فان الطابع الفردي للشخصيات يظل غير واضح للقارىء .

والكتاب الشبان يوجهون الاهتمام الى فردية الصورة بافكار الابطال ولفتهم ، وفي النتيجة نجد الشخصية كثيرا جدا ما تذوب في الجماهير ، بحيث تشبه الشخصيات بعضها بعضا ، وعدا هذا فالقصص قلما تكون ديناميكية ، وهي في بعض الاحيان بلا محور والوسائل التعبيرية فقيرة ، والشعور بالصيغة القوية لفن التعليم وافكار القصص لا يتم التعبير عنها غالبا بالصورة الرمزية ، ولكن في الاستطرادات السياسية والاجتماعية ، والكلمة في قصص الادباء الشبان واقاصيصهم أكبر منها في اسلوب الكتابة السياسية الاجتماعية والثقافة العالية بالطبع تبدو بصورة غير كافية في الاعمال الادبية ولكن الامر ليس في هذا فحسب ، فقد اضحت خصائص ابداع الكتاب الشبان في مثل جورج حنا ، الشخصية اللبنانية الاجتماعية المشهورة ، وهو الكاتب الاجتماعي السياسي الذي قال ذات يوم : « من المعروف ان الادب الواقعي يحمل في نفسه طابع هذا العصر، منذ نشأته وبالنسبة للعالم العربي فان عصرنا هذا هو عصر النضال في سبيل التحرر من الاستعمار الذي يعمل بصورة سافرة او مستترة ، وفي هذه الظروف لا يستطيع الكاتب ان يتخلى تماما حتى ولو بقدر ما عن لغة الصحافة في صورة خالصة قادرة على ان تعبر عن افكار الكاتب بدلا من ان تؤثر تأثيرا اكثر فاعلية على الارادة الشريرة للناس ،سواء كانوا من الحكام المستبدين والرجعيين ام من الاستعماريين (٣) »

لكن العاطفية التقليدية في الادب العربي التي اخذت تختفي تقريبا في أحسن مؤلفات محمود تيمور وطه حسين ، ولدت من جديد في ابداع الكتاب الشبان الديمقراطيين .

ويجب ان نشير الى ان صبغة العاطفية في انتاج السنوات الاخيرة اخذت تقل بالتدريج ، وخاصة عقب قيام الجمهورية في مصر بعد عام ١٩٥٢ ، حينما تفتحت امام الشعب العربي آفاق واقعية للنضال المؤثر ، من اجل التقلب النهائي على الطرق الاقتصادية للاستعمار .

وفي الاربعينات كان موقف الاستعمار والرجعية الداخلية في البلاد العربية قويا ، وكان العملاء والفلاحون يعيشون في ظروف قاسية ، حيث اضطهدت حرية الفكر بجميع الوسائل .

ولهذا فان ابطال القصص والاقاصيص في هذه السنوات كانوا يتألمون ولكنهم لا يتوقفون ، بل يبحثون عن الضرورة المحتومة لتحقيق العدالة بالنضال الشعبي ، لكنهم في الحقيقة لم يكونوا يناضلون ، بل كانوا في احسن الحالات يحكون على اي نطاق ينشأ النضال من اجل تحقيق العدالة .

وشخصيات هذه القصص مرسومة بطريقة مبسطة، ذات طرف واحد، هو الالم وحده ، اضف الى ذلك ان تصوير عذاب البطل يقدم غالبا في صور « قياسية ، فالبطل ـ مع عذاب الجوع ـ يقاسي كذلك آلام البرد وهو يهذي بصورة كئيبة تحت المطر المنهمر وهو يبحث عن عمل ، ويحلم بقطعة الخبز التي يمكن ان تشبعه ، وهذه المواقف كثيرا ما نلتقي بها بقدر كبير جدا في قصص القصاصين الشبان في لبنان وسوريا ، وكذلك في مصر . ومع هذا فمن الواضح بالنسبة لبيروت ودمشق والقاهرة ان الامطار الغزيرة ليست من ملامحها .

والذي يمكن ان يقال عن الصبغة العاطفية في مؤلفات شباب الكتاب انه من الضروري ان نلاحظ لا تأثير التقاليد فحسب ، ولكن كذلك حالة الم « الرجل الصغير » ، فهذا الالم واضح جدا ، وقريب من القصاص الذي ينحدر من بين الناس البسطاء ، فكثير منهم ـ بجانب نشاطه الادبي ـ يظل مشغولا بعمله السابق ، ويظل عاملا او موظفا صغيرا وهكذا ، لان العمل الادبي في البلدان العربية ، وفي معظم الاحوال ، لا يمكن ان يضمن حياة مقبولة ، ولا شك ان محور كثير من القصص مأخوذ من الحياة بكامله ، لكن بعضا منها له طابع الترجمة الذاتية ، والمناقشات البلاغية للشخصيات يمكن ان نلتقي بها في كل قصة للكتاب الشبان تقريبا ، انها في احيان كثيرة تضعف القيمة الجمالية للانتاج ، وفي احيان تكون نهائية تماما بدون هذه الاضافة . ومن الواضح ما قيل بتعبير جورج حنا من ان الكاتب لا يريد « ان يرفض تماما استعمال لغة الصحافة ولو في اضيق الحدود »ومن هذا يظهر ذلك اكبر تأثير فعال على الارادة الشريرة للناس » ، ويحد انتباه القارىء الى الفكرة الموجودة في القصة،لكي يجبره على ان يفكر .

لكنه بالرغم من عدم نضج انتاج الكتاب الشبان الديمقراطيين ، فان انتاجهم يمس بصورة جدية المشكلات الهامة ، وجميع المبادئ الكبرى .

وفي عام ١٩٥٠ظهر من كتب الكتاب الديمقراطيين اكثر مما ظهر من كتب الكتاب البورجوازيين ،واجبرت شعبية الادباءالديمقراطيين دور النشر والمجلات البورجوازية على ان تنشر احيانا انتاج الكتاب الشبان ، وهي مستندة الى رأي التجاريين البحت ، وهذه الآراء كان من الواضح انها تريد ان تقود الفكرة الثورية ، والكتاب البورجوازيون كثيرا ما يلقون ابطالهم في تيار الكفاح الثوري . وهذا ـ على سبيل المثال ـ كما في رواية سهيل ادريس « الحي اللاتيني » فالشخصية الرئيسية المشبعة بالمغامرات المحبوبة الكثيرة العدد ، لا تجاوز الثائر هذا او ذاك .

وبطل قصة جورج طرابيشي « الظلام المتعفن » يضرب فتاة لسلوكها الرقيق فقط لانها لم توافق على ان تبادله الحب ، وبعد فترة من الزمن يعرف ان الفتاة قد ختمت حياتها بنفسها ، وحينئذ يبدأ يعذبه الندم ، ولأربع سنوات لم يعرف البطل طعم النوم ، ولا الهدوء، واخذ يبحث عن الموت ، واخيرا سافر الى الجزائر ، حيث شارك في حركة الثوار ..

ويبدو تأثير مجموعة مجلة « الطريق » على تحول الحركة الديمقراطية في مصر ، حيث يقوى النضال الفكري عام ١٩٤٢ ،فالكتاب الاجتماعيون السياسيون الشبان اخذوا يصدرون مجموعة من المجلات الجديدة التي يدعون فيها الى الافكار الديمقراطية ، وكذلك يعرفون القارىء بعلم الجمال اليساري ، لكن في عام ١٩٤٦ وصلت الاحزاب الرجعية الى الحكم ، وقوى النضال ضد الافكار « التخريبية »،واغلقت هذه المجلات ، واعتقل بعض المتعاونين معها ، ونفوا ، ولكن النضال الفكري لم يتوقف ، فعلى صفحات مجلة « الطريق » ومجلة « الثقافة الوطنية » اللبنانيتين وغيرهما ـ فضح الكتاب المصريون مناورات الزمرة الحاكمة في مصر ، تلك المناورات التي حاولت بمساعدة المستعمرين الانكليز ان تقمع الحركة الوطنية التحررية في البلاد ، وقد دافع الكتاب الشبان عن حق « الادب المشايع » للديمقراطية في البقاء في مرحلة النضال الطبقي العنيف ، وهم يبرهنون على ان « اللامبالاة السياسية » في الادب البورجوازي انما هي مظهر خداع ومزيف ، لان نشر التعليم والموعظة حق للكتاب ولكنه لم يدخل في السياسة ، والنفوذ الذي ينعكس في صورة وبيلة على الابداع الفني ، والادب البرجوازي في الواقع يخدم الرجعية ويجذب اهتمام الجماهير عن النضال بهذه الوسائل في تشاؤمها ، وعدم ايمانها بامكانية الوصول الى حياة

---

(٣) « الشرق المعاصر » ، ١٩٥٧ ، عدد ٦ ، ص ١٠

افضـــل .

في سنوات ما بعـد الحرب رفعت الرجعية شعار « الفـن للفـن والادب للادب » وحتى هؤلاء الكتاب الكبار والنصراء السابقون للطريقة الواقعيـة مثل طـه حسين وتوفيق الحكيم ، ومحمود تيمور اصبحـت مبدعاتهم تبدو في صورة شكليـة ذات نزعات فنية هابطة .

والنضال بين الكتاب الديمقراطيين الذين نهضـوا للدفاع عـن مصالح الشعب ، وبين الكتاب البورجوازيين المنضوين في عالم مزدحـم بالاضطرابات النفسية ـ الهب المشاعـر سنـة بعد اخرى ، وجعله يقبل أفي بعض الاحيـان طابـع العنف .

وكان جوهر النضال، وهدف محاولة الكتاب الديمقراطيين مما عبر عنه تعبيرا جيدا الناقـد اللبناني المعروف حسين مـروة ، الـذي كتب يقـول :

« اننـا ننادي الادباء لكي يدعـوا الى سعادة الحياة ، وان يكتشفوا الجمال في الحياة ، ومنابع السعادة والامل .. ولهـذا فنحن ننادي بالنضال ضد هذا الادب الاسود الذي يبذر اليـأس والتشاؤم فـي النفوس ، ويريد ان يغلق امام الناس نافذة الامل في غد افضل من اليوم، وترى فلسفته المستقبل حائطا اصم .. ونحن نعرف كيف ينشئـون هذا الادب الذي لا يشيـر الى اية بادرة للمساواة بين النحل وبين الانسان العامل ، والادب الناشىء عـن الانسان المبدع الذي يعرف ما يفعل، وامام هذه الظروف فقط فـان الانسان في الحقيقـة قادر على ان يقهر الطبيعة في سبيـل سعادتـه وحيانه البهيجية (٤) »

وتربيـة الانسان الجديد ، انسان الكفاح الحر ، والافق العقلـي الواسع ، الانسان الوطني لا يتصورهـا الكتاب الديمقراطيون بدون دعوة واسعـة للشعب ، وكأنهـا من المشكلات الملحـة في الحياة الاجتماعيـة مثل التراث الادبي الكلاسيكي للعرب ، فكثيـرا ما زيف علـم الادب العربي الكلاسيكي عن ملامح العلاقات النقديـة بالحياة في ذلك الحيـن، وعناصر النضال ضد الشر والظلم ، اذ وجـدوا لدى الحريري ، وابي العلاء ، والجاحظ وغيرهم من الكلاسيكيين دعوة الى النضال ضد اعداء الشعب ، ولم يهتم اي منهـم بالصورة الرائعـة في انتاج هؤلاء المؤلفين، ولا في التحليل الذي كـان يحدد الادب القديم فحسب ، ولكنهم وجدوا في هـذا الانتاج المضمون الثري الخصب كذلك .

ويحاول علمـاء الادب التقدميون ان يوجدوا تنابعا بيـن التراث الثقافي ومنجزات الثقافـة المعاصرة ، وان يدركـوا بطريقـة جديدة سير تطـور الفكرة الجمالية ، ومن الواجب ان يكرس دور جماهير الشعـب في انشاء قيم فنية ،وفي هذا الصدد يجب ان نشير الى ان النقـــاد الديمقراطيين يشغلون انفسهم بصورة جدية ولاول مرة بتحليـل « الف ليلة وليلة » ، و« كليلة ودمنة » ، وروايـة عنترة ، ومؤلفات اخرى من الابداع الشعبي الذي استخف به علم الادب القديم ، فنسبوا اليه طائفة من الادب الذي يعـد في المرتبة الثالثـة .

وفي عام ١٩٥٤ اصدر عالم الادب والكاتب المصري احمـد رشـدي صالح كتاب « الادب الشعبي » ، وقد عالج هذا العمل على امتداد احد عشر عامـا ، وفيه بحث عددا ضخمـا من المؤلفات الفلكلورية ، ودرس مـع هذا الظروف الاجتماعية والثقافية التي الفت فيها (٥) .

وبجانب دراسـة التراث الكلاسيكي حاول علماء الادب ان يتفهموا التجربة ، وان يجمعـوا الادب العربي الجديد ، وعلى صفحات المجـلات والجرائـد كثيرا ما ظهرت مقالات نقديـة مخصصة لابداع بعض المؤلفين او بعض المؤلفـات .

اضف الى ذلك اهمية المشكلات الخاصة باعادة فهم التراث الثقافي للعرب الذيـن يعترفـون بالادب التقدمي في جميع البلدان العربيـة ، انهم يقومون ببحوث كاملـة ودقيقة بعضهم مع بعض .

والمحاولة الهامة في اصدار تاريخ المسرحية العربية المعاصرة تتمثل في كتاب عالـم الادب اللبناني محمد يوسف نجم : « المسرحية في الادب العربي المعاصر » ، الذي ظهر في عام ١٩٥٦ . وقـد قام يوسف نجـم بعمل ضخم في جمع هذه المادة الغزيرة ومعالجتهـا ودراستها لم يقـم به احد من قبله ، وهذه اول دراســة جديـة تعرف القارىء بتطـور المسرحيـة العربيـة منذ اواسط القرن الماضي حتـى بداية الحـرب العالميـة الاولـى .

والمسرح في صورته المعاصرة وجد في البلاد العربية في اواسـط القرن التاسع عشر ، وقبل هذا ايضا وجد في العصور الوسطى مسرح العرائس ، ومسرح خيال الظل المقتبس من الصين ، ويربط يوسف نجم ظهور المسرح العربي المعاصر باسم مارون النقاش (١٨١٧ ـ ١٨٥٥) مؤلف اول مسرحيـة عربية ، ومحل عشرات المسرحيات ، والذي أعاد اعـداد النشرات الاصيلة ، واشاع هذه المادة الضخمة .

وقد محا يوسف نجم واحدة من البقع البيضاء فـي تاريخ الادب العربي والمسرح العربي ، ففي عام ١٩٥٧ استقبل كتاب يوسف نجـــم بالحفاوة من جامعة الدول العربية .

ومحمد يوسف نجم هو كذلك مؤلف كتاب « فن القصة » ١٩٥٥، وفي الكتاب يبحث مسائل التاليف وتطور الاحداث ، والحوار ، وابداع الصـورة .

وهذا النوع مـن الكتب يعتبر نوعا فريدا في علم الادب العربي، ولهذا كان كتاب يوسف نجم ذا قيمـة كبيرة في هذا المجال ، والهدف الرئيسي للفنان ـ في رأي المؤلف ـ هو عرض الحياة ، وكيف وجدت، وليس الهدف ان يزخرفها ، ولا ان يخطف من الحياة جوانبها السلبيـة وحدها ، وبالاضافة الى ذلك فان واجب الفنان ان يكشف امام القـارىء الحياة الداخليـة للابطال ، وان يعرض نشوء افكارهم ، ومن اجل بلـوغ هذا الهدف يجب على الكاتب ان يستخدم جميع الوسائل التي في لوحة الوانه الفنية ، كاللغـة ، وتطور الاحداث ، والتكوين ، وهكذا .

وبمثابة النموذج الناجح لحل هذه المشكلات يحلـل يوسف نجـم بالتفصيل روايـة تورجينيف « الآباء والابناء » ، وروايـة فلوبير « مدام بوفاري » ، وبعض روايات الكاتب المصري نجيب محفوظ .ويوسف نجـم يعتبـر ان المضمـون والفكرة همـا المقياس لقيمـة الانتاج الفني . وهو يخصص اماكـن كثيرة مـن كتابـه لمسالة الشكل ، وينتقد انتاج الكتاب العرب الشبان الذين لا يكادون يعيرون الشكل واللغة والايقاع الموسيقى للجملـة ادنـى اهتمام في انتاجهم .

ويوسف نجم يتوقف بالتفصيل عند مسائـــل الفردية والنموذج للشخصية ، فالانسان الحي المتفرد ، ذو الطابع الخـاص ، والملامـــح المميزة ـ يجب ان يقدم نفسه بنفسه للقـراء .

والمؤلف ينتقـد الكتاب الشبان مـن اجل انعـــدام شخصيات ابطالهـم .

وهذه المسائل قد لا تكـون مطروحة في علم الادب العربي للمـرة الاولى ، ولكـن كتاب يوسف نجم يبرزهـا بمزيد من الاهتمام .

ترجمه عن الروسيـة

رضوان ابراهيم

---

(٤) « الثقافة الوطنية » ، ١٩٥٥ ، عدد ٦ ، ص ٢١ .

(٥) احمد رشدي صالح كان مدير المركز الفنون الشعبية الـــذي انشىء عام ١٩٥٧ بمبادرة حكومة جمهورية مصر .